أستاذي طه حسين

علي جواد الطاهر

أعده للنشر وقدم له

سعيد عدنان

١- هذا نص كتبه أستاذي العلامة علي جواد الطاهر، في ١٩٩٣/١٠/٢٥، ولم ينشره، إذ اتصلت عليه منذ تلك السنة آلام المرض، وكان كلما وجد نشاطاً من بدنه يأخذ بجمع مقالاته التي لم يضمها كتاب، ويهيئها للنشر ومن نهجه في ذلك أن ينتظم المقالات التي تجمعها دفتا كتاب، ناظم من معنى أو مبنى، فهيأ ((ج ، س)) و((كلمات)) وصدر كلاهما بعد وفاته، وهيأ ((وأنت تقرأ)) المقالات التي كان ينشرها في مجلة ((الفيصل)) ووضعه على طريق النشر، وقد نُشر. وكانت لديه، منذ تلك السنة، مقالات يكتبها تباعاً لكل مقالة عنوان، ويجمعها كلها عنوان ((الباب الواسع))، وينشرها كل خميس في جريدة ((الثورة)) ومدارها في أغلبها على الاستذكار وما إليه، وقد أودع الجريدة كل ما كتب من ((الباب الواسع)) فظلتْ تنشر، بعد وفاته كل أسبوع حتى استوفيت.

كان يهيئ مقالاته، وبحوثه ويضعها في الصورة التي يرضاها وهو يرى أن ما بقي له من أيام يوشك أن ينفد،غير أنه ما فقد طمأنينته ورضا نفسه، وهو المنهجي الذي يرى النتائج في مقدماتها.

وبقي ((أستاذي طه حسين)) فكأنه لم يجد له موضعاً ملائماً بين الكتب التي هيأها للنشر،فدفعه إليّ - وكنت أزوره كل أسبوع - واستبقاه عندي، وكان المرض قد اشتد به حتى استأثرت به رحمة الله في ١٩٩٦/١٠/٩، فاحتفظتُ بالنص ريثما تتاح فرصة نشره.

٢- كُتب النص في ذكرى وفاة طه حسين العشرين، استذكاراً وتمجيداً لما يستحق التمجيد، ولم يكن أول إشادة بطه حسين، بل إن الطاهر لايني يُجري ذكر طه حسين على لسانه وعلى قلمه، وهو مثاله كلما استدعى المقام مثالاً لفن الكتابة الرفيع والمقالة الأدبية، أو لسعة الأفق ورحابة المدى وحسن إدارة الكلام، وعنده أن طه حسين لا يلحق به أحد في براعة النثر وسمو صياغته.

كتب عنه غداة وفاته: ((طه حسين.. نبأ)) ونشرها في مجلة الأقلام في سنة ١٩٧٤ في ملفّها الذي أعدته لتأبينه، وأعاد نشرها في كتابه ((أساتذتي ومقالات أخرى)) [١] وكتب عنه في

سنة ١٩٨٥ : ((طه حسين يستصعب النثر)) [٢] مبيناً أنه بدأ حياته الأدبية شاعراً يقول الموزون المقفى، وكان صديقه الزيات يزاول النثر ويغريه بمزاولته، غير أنه كان يستصعب النثر ويراه شيئاً ليس في مقدوره. ووصل بحديثه اليه إذ كتب: ((عن أحمد لطفي السيد و(المقالة))) [٣]. وكثيرٌ هو ذكر طه حسين لدى الطاهر، بيدَ أنه لم يكتب عنه بهذا العنوان: ((أستاذي طه حسين)) الاّ في سنة ١٩٩٣ في ذكرى وفاته العشرين فكان جماع ما تناثر قبله من شتات الذكر والأحاديث، وكان أيضاً بسطاً وتفصيلاً لها وزيادةً عليها.

وله من العنوانات التي نصّ فيها على أساتذته ممجداً لهم: ((أستاذي مصطفى جواد.. الحزن والندم)) و((أستاذي- البصير- ومضات منسجمة)) و((أستاذي البصير- في ذكراه العاشرة)) و((أستاذي طه الراوي)) و((أستاذي المهنا)) وكلها نُشر في ((أساتذتي ومقالات أخرى)). وكانت من قبل قد نُشرت في جريدة ((الجمهورية)) عدا ((أستاذي مصطفى جواد)) و((أستاذي البصير-ومضات منسجمة)).

ولم أرَ كالطاهر من لا يفتأ يذكر أساتذته وينشر فضائلهم، ويُزهى أنه أخذ عنهم، ورأى العربية بجلالها على ألسنتهم وفي مجرى أقلامهم. وكان يرى أن مما يجب عليه- إذا مرت ذكرى وفاة أحدهم- أن يقيم الذكرى بمقالة ينشرها يُحيي بها كريم الخلال ومعدن الفضل، فلما أظلت ذكرى وفاة طه حسين العشرون وجد القلم يندفع مستعيداً ذكريات مدارها: طه حسين في الذي كان منه، والذي كان من الآخرين. وفي الذي أبقاه حياً حتى كأن الأيام لا تنال منه.

وإذا كان عنصر الحبّ والوفاء من أقوى دواعي كتابة هذه المقالات فإن عنصراً آخر لعله لا يقلّ عنهما كان يحفز الى كتابتها وبسط القول في هؤلاء الأعلام: هو أن يتضح الفرق بين ما كان عليه ((الأستاذ)) من مكانة سامقة في الخلق والعلم، وما آل اليه بسبب من ظروف اجتماعية وسياسية غير مواتية، ومما يُرشح ذلك أن تلك المقالات كُتبتْ والتدهور مطلّ بقرنيه متغلغلاً في النسيج الاجتماعي، ويستطيع دارس متأمل لا يريد أن يقف عند الظاهر أن يرى في تلك المقالات ظاهراً أدبيا يمجّد أساتذةً كراماً، وأن يرى لها باطناً يرمي إلى النقد الاجتماعي ويدلّ بالكناية على ما اقترفت السياسة القائمة يومئذٍ من جرائم بحق الثقافة فانحرفت بالمعرفة عن سبيلها المشرع، وجعلتها تابعة لأغراض آنيّة متقلبة فأصاب مسيرة التعليم ما أصابها من إحباط وارتكاس.

٣- اتسم هذا النص ((أستاذي طه حسين)) بأن عناصر المعرفة فيه قد جاءت ممتزجةً بالخيال والعاطفة امتزاجاً تاماً، فلم تكن المعرفة وموادها في هذا النص خالصة مجردة وإنّما هي معرفة ملتبسة بانفعال من الحبّ والذكرى، ولم يكن مصدر الحب الاّ المعرفة التي استحالت شيئاً من صميم الكيان

الذي لا يجد معنى له الاّ موصولاً بالمعرفة وصحتها واتساعها وجمال أدائها.

بدأ ((النص)) بالذكرى، ذكرى البداءة، والطريق الذي أوصل إلى ((طه حسين))، ولا بد أن يكون على الطريق دليل خرّيت يعرف مواقع النجوم، وكان أستاذاً كريماً سعُد به علي جواد الطاهر منذ المدرسة المتوسطة وبقيت السعادة عالقة بروحه لا ينى يذكرها ويستعيدها مبتهجاً أن درّسه الأستاذ محمد أحمد المهنا وكتب عنه ((أستاذي المهنا))، ولا يمحو الزمن على كرّه من الذاكرة شأناً أصبح ركناً ركيناً في حياة قُدّر لها أن تكون شجرة وارفة الظلال في ثقافة العراق في النصف الثاني من القرن العشرين. ذلك الشأن مما يتصل بمعرفة طه حسين أول مرة وكان الدليل إليه الأستاذ المهنا: ((أما الحجر الأساس فما زلت تذكر حفل وضعه: لقد كنت في الصف الثاني من متوسطة الحلة ودخل الأستاذ المهنا يحمل كتاباً يعتز به وشرع يقرأ: ((لا يذكر لهذا اليوم اسماً ....)) إنك لترى هذا اليوم البعيد قريباً فتحفظ لاستاذك اليد وتعترف بالفضل))[٤]. قال ذلك في اختتام مقالته: (طه حسين ..نبأ)) وهو يرثي الفقيد غداة وفاته، ويريد أن يصل المنتهى بالمبتدأ فيجد الأستاذ المهنا حاضراً هناك وهو يضع حجر الأساس لكيان كان على طريق التنشئة فيتم البناء وتعلو طبقاته وتظل لذلك الحجر القديم مكانة أيّ مكانة.

وإذ يعود كرّة أخرى الى طه حسين يكتب عنه لا يجد ما يستهل به كتابته خيراً من الذكرى القديمة تلك، ذكرى وضع حجر الأساس في هذه المعرفة بينه وبين طه حسين التي امتدت وأثمرت، فيبتدئ بالمهنا ودرسه في ((الثاني المتوسط)) وقد شاعت محبة الاثنين بين حروف الكلمات وظللت سطورها.

ويمضي ((النص)) يمتح من بئر الذكرى أعذب مياهها، ويلتقط عُرى تلك الصلة التي شرعت تنمو بين التلميذ الناشئ وطه حسين إذ خرج التلميذ من ((الثاني المتوسط)) يتسقّط ما ينتهي إليه في مدينة ((الحلة)) من مقالات طه حسين وكتبه، وكانت مجلة ((الرسالة)) خير نافذة، وتأتي بعدها ((الثقافة)).

ويرسُم النص- فيما يرسُم- ملمحاً من نشأة علي جواد الطاهر نفسه في حبّه الأدب، وشغفه به إذا جاء على نحو من الإيقاع حتى نما هذا الأمر لديه وصار من معايير النقد الأدبي عنده فلا بد للقصيدة في تكاملها من عنصر الموسيقى. ولا بد للنثر في انسجامه من نغم منسجم يعلو ويخفت في تساوق مع الفكر والعاطفة والخيال. ولا يخفى ما لطه حسين من أثر في ذلك.

وتطّرد الصلة بعد أن يلتحق الطاهر بدار المعلمين العالية ببغداد ويجد فيها مكتبة تمدّه بمؤلفات طه حسين. فيقرأ ويستعيد وتنفذ عناصر كثيرة من أدب طه حسين إلى كيانه وترسُب في أعماقه حتى تستحيل جزءاً منه.

وهو يدري أن الذي يشده الى طه حسين هو هذه اللغة العذبة التي تجئ كلماتها مؤتلفة

منسجمة ناعمة النفاذ إلى النفس، وهذا الخيال المبتكر الذي لا يني يأتي بالجديد من الصور مغموساً بعواطف غزيرة ثرّة منها البهيج الفرح، ومنها الشجي الحزين، وهي متنوعة تنوع الحياة نفسها بين إقبال وإدبار، وليل ونهار.

هو يدري أن الذي يشدّه الى طه حسين هو ((الأسلوب))، وإذا قلت ((الأسلوب)) قلت ((طريقة الكتابة)).

ويحين موعد البعثة الدراسية إلى فرنسا، ولا بد أن يتلبّث- وهو في الطريق اليها- في القاهرة سنة وبعض سنة تمهيداً للالتحاق بجامعة السوربون. كان ذلك في سنة ١٩٤٦ ولم يكن قد بقي في الجامعة من الكبار من يملأ العين والسمع، وكانت السياسة يومئذٍ قد جارت على طه حسين فأبعدته عن الجامعة، وشعر الطاهر بالخيبة، وساوره شئٌ من الاحباط، وقد عبّر عن ذلك كلّه بمقالة عنوانها: ((أتى الزمان بنوه في شبيبته)) قرأتُها مخطوطة لديه في سنة لعلها ١٩٨٤ أو ١٩٨٥، ولم أرها منشورة بعد ذلك، وندمي أني لم أستبق لي نسخة منها. كان مدارها على ما آلت اليه الحياة الجامعية في القاهرة، وما آل اليه أعلام الأدب يومئذٍ كزكي مبارك، وسلامة موسى وما اتضح له من خُلْف بين الخَبَر والخُبْر، وهو الذي يريد أن يطابق القول الفعل، وأن ينسجم الفكر مع السلوك.

غير أنه يرى طه حسين ويسمعه وهو يؤبن صديقه مصطفى عبد الرازق في أربعينيته. والشيخ عبد الرازق (١٨٨٥-١٩٤٦) [٥] فقيه مستنير، وأستاذ الفلسفة الإسلامية في الجامعة، تولى وزارة الأوقاف، وتقلد مشيخة الأزهر وزاول هو وأخوه علي عبد الرازق أطرافاً من السياسة من خلال حزب ((الأحرار الدستوريين)) الحزب ذي المنحى اللبرالي.

وقد كانت لطه حسين صلة وثيقة بآل عبد الرازق نشأت قديماً واستمرت على إلتقاء المودة والأفكار، وكان طه حسين يجد من آل عبد الرازق نُصرة على ما ينتابه، فلما توفي مصطفى عبد الرازق استجاشت كلّ تلك المعاني والعواطف في نفسه وهو يهيئ مرثيته ويمدّها بما يلائم الموقف من شعر يستشهد به وكانت ((سينية الحطيئة)) من بارع كناية طه حسين عن الموقف كله وما يقتضيه.

استمع علي جواد الطاهر إلى طه حسين مأخوذاً بجلاوة الإنشاد التي تجعل النثر في سمو الشعر ورقي أنغامه، نافذاً الى ما وراء الكلام والشعر المُستشهد به من موقف، وحال كان عليها طه حسين في ما يتصل به وبالآخرين.

ولا يقف الاعجاب عند حدّ ببلاغة طه حسين في إدارة الكلام، وإنزال الألفاظ منازلها بحيث ينشأ من حسن تأليفها ايقاع أخّاذ، ولا يقف الاعجاب عند حدّ بما يبتكر خيال طه حسين من بارع الصور وجديدها وقد امتزجت بخفيّ العاطفة أو قويّها.

ولكن الاعجاب بأبحاث طه حسين الأدبية ليس بتلك المنزلة، وهي ليست مما يراه الطاهر أمثلةً في البحث الأدبي، وهنا

يعرّج ((النص)) على ما كان من شأن الدكتور محمد مهدي البصير مع طه حسين فلم يكن البصير يميل الى طه حسين، بل كان لا يفتأ يصوّب اليه سهامه، لا سيما ما كان من قضية الشعر الجاهلي وذهاب طه حسين إلى انكار جملة كبيرة منه، على حين كان البصير يُثبت جملته، ولا يكاد يشك في ما لم يشك فيه القدماء أنفسهم. وقد كان البصير أستاذ الطاهر وكانت له في نفسه منزلة سامقة محفوفة بالإجلال والإكبار، وهي منزلة كيانُها البحث الأدبي، والموقف الفكري الاجتماعي، وقد احتفظ الطاهر بمنزلتي أستاذيه (طه حسين والبصير) في نفسه، على ما يبدو بينهما من اختلاف، وكأنه غير معنيّ به، هو يريدهما معاً: طه حسين لأُسلوبه وما يتفرع عنه، والبصير لنهجه في البحث الأدبي ومواقفه في الحياة العامة.

غير أن البصير في اختلافه مع طه حسين لا يجهل مكانته، ولا يبخسه ما له من أشياء يعزّ مثيلها، وقد أعرب البصير عن ذلك يوم توفي طه حسين ودعاه تليفزيون بغداد لإعلان النعي وكان الطاهر بصحبته فسُرَ وهو الحزين.

ويمضي ((النص)) الى خاتمته وقد تخللته في كلّ حرف منه عاطفة كريمة نحو أساتذة كبار: المهنا، وطه حسين والبصير كان لهم الأثر الكبير في التكوين والهدي الى طريق الأدب وطريق الفكر، وكان من صميم الوفاء أن يُستذكروا، وقلّ مثل أستاذي العلامة علي جواد الطاهر من يستعيد فضائل أساتذته ويحيي مجدهم ويُزهى به.

ولو لا خلال سنّها الشعر ما درى

بناة المعالي كيف تبنى المكارم

أُستاذي طه حسين

علي جواد الطاهر

كنتَ في الصف الثاني من متوسطة الحلة، ومدرسكَ في اللغة العربية الأستاذ محمد احمد المهنّا، ومن سمات المهنا انه مدرس أديب وليس مدرساً فقط، وها هو ذا يدخل إلى "الصف" متأبطاً كتابين لا علاقة مباشرةً لهما بالدرس ولكنهما في الصميم من الدرس كما يجب أن يكون: الدرس درس مطالعة، والتلاميذ يملُّون الكتاب المقرر ويستريحون في الخروج إلى ميدان أوسع، ويقف أستاذهم الفاضل، ويفتح أحد الكتابين ويقرأ بإعجاب وتقدير:

((كان سابعَ ثلاثةَ عَشَرَ من أبناءِ أبيه، وخامسَ أحدَ عَشَرَ من أشقته. وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكانا خاصا يمتاز من مكان إخوته وأخواته. أكان هذا المكان يرضيه؟ أكان يؤذيه؟ الحق أنه لا يتبين ذلك إلاّ في غموض وإبهام. والحق أنه لا يستطيع الآن أن يحكم في ذلك حكما صادقا، كان يحسُّ من أُمِّه رحمةً ورأفة، وكان يجد من أبيه لينا ورفقا، وكان يشعر من إخوته بشيء من الاحتياط في تحدّثهم إليه ومعاملتهم له. ولكنه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمِّه شيئاً من الإهمال أحياناً، ومن الغِلْظة أحياناً أخرى. وكان يجد

إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئاً من الإهمال أيضا، والإزورار من وقت إلى وقت. وكان احتياط إخوته وأخواته يؤذيه؛ لأنه كان يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشوباً بشيء من الازدراء.

على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كلِّه؛ فقد أحسَّ أن لغيره من الناس عليه فضلا، وان أخوته وأخواته يستطيعون ما لا يستطيع، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له. وأحسَّ أن أُمَّه تأذن لإخوته وأخَواتِه في أشياء تحظُرها عليه، وكان ذلك يُحْفِظُه. ولكن لا تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى حزنٍ صامت عميق ذلك أنه سمع إخوتَه يصفون ما لا علم له به، فعلم أنهم يَرَوْن ما لا يرى)).

كان المدرس الأستاذ يقرأ بإعجاب وتقدير في إلقاء منغَّم موصلاً ظاهر اللفظ بباطن المعنى فيُعجب التلاميذ بأستاذهم المدرس ويُعجبون بما أعجبه. وصحب الإعجاب عجبٌ حين دلّهم الأستاذ المدرس على أنّ هذه السطور البليغة تعني أن المتكلم بضمير الغائب هو المتكلم الذي اعتاد الناس أن يروه بضمير المتكلم، وأن هذا المتكلم بضمير الغائب عن نفسه بهذه اللغة الموقعة أعمى، أراد أن يدلنا كيف اكتشف انه أعمى... إن اسمه طه حسين: الدكتور طه حسين واسم كتابه: الأيام، والأيام أيامه أي حياته وما كان له فيها ولها عليه...

ومضى الدرس، ولعله مضى عابراً على كثيرين... ولكنه بقي عالقا في النفس لدى آخرين قد يكون "صاحبنا" - وصاحبنا هذه من مبتكرات طه حسين في الاستعمال العربي لتعني المتكلم الذي يتحدث بضمير الغائب - قد يكون صاحبنا واحداً منهم أو الوحيد الذي سيكون لطه حسين في تعليمه شأن.

ومن الأسباب في هذا "الشأن" أن هذا التلميذ يقرأ ما لا يقرأ غيره، ويلم بهذا الكتاب أو ذاك مما يقع بيده في البيت أو في المدرسة حتى شرعت تستحكم فيه عادة ما يعرف بالمطالعة الخارجية. وهو في هذه المطالعة يقرأ أشياء كثيرة على غير تعيين فيها التاريخ والأدب وفي الأدب الرواية والكتاب الذي يجمع المقالات وغلب عليه حينا من هذه الكتب ما كان لسلامة موسى لأفكار حادة مستفزة يثيرها الكاتب بما ينقله إلى العربي من حياة الغربي وما يقلب به الفكر الشرقي بمستجدات الفكر الأوربي. ذلك ما وقع فعلاً...

ولكن الذي وقع فعلا شرع يتضاءل - مع الزمن- بقراءات لطه حسين و أحمد حسن الزيات ومجلة "الرسالة" خصوصاً حيث يلتقي مع المازني والحكيم وزكي مبارك... ومن سواهم ممن لا يكتفون في مقالاتهم بالفكرة عارية وإنما يغذونه بالخيال والعاطفة ويزينونها بالتركيب اللفظي الذي يعكس طبيعة الفنان إنهم بكلمة واحدة اسلوبيون.

وساعد تأسيس مكتبة عامة في الحلة على الاستزادة وعلى لقاء منظم مع مجلة "الرسالة".

وجاءت مجلة "الثقافة" عام (١٩٣٩م) لتلتقي مع

"الرسالة" وتحاول مزاحمتها، ولم تزاحمها إلا بطه حسين الذي تولى - فيها- مهمة ((إيقاظ قوم نيام)) بتحمل مسؤولية النقد.

و((الناقد آخر الأمر أديب بأدق معاني الكلمة. والنقد آخر الأمر أدب بأصح معاني الكلمة أيضاً، وربما أُتيحتْ للناقد مزايا لا تتاح للأديب المنشئ، فالناقد مرآة لقرائه كالأديب، والقراء مرآة للناقد كما إنهم مرآة للأديب أيضاً، ولكن الناقد مرآة صافية واضحة جلية كأحسن ما يكون الصفاء والوضوح والجلاء وهذه المرآة تعكس صورة الأديب نفسه كما تعكس صورة القارئ وكما تعكس صورة الناقد، فالصفحة من النقد الخليق بهذا الاسم مجتمع من الصور لهذه النفسيات الثلاث: نفسية المنشئ المؤثر، ونفسية القارئ المتأثر، ونفسية الناقد الذي يقضي بينهما بالعدل ويزن أمرهما بالقسطاس)).

قرأ صاحبنا التلميذ في الصف الخامس العلمي من ثانوية الحلة هذه المقالة التي جعل طه حسين عنوانها ((مع أدبائنا المعاصرين)) ولعله لم يفهمها كما يجب أو لم يفهمها اصلاً... ولكنه قرأها، ومن يدرينا فلعل كلمة منها أو رأي فيها نفذا إلى نفسه وهو لا يدري، وإلاّ فلم هذا الانتظار للحلقات الآتية في الأعداد الآتية: فيض الخاطر للأستاذ احمد أمين، رجعة أبي العلاء للأستاذ عباس محمود العقاد... انتظار المحب المشوق المأخوذ بنعومة الناقد في رأيه وانسياب لغته. ولنقد "رجعة أبي العلاء" معنى خاص في نفس هذا القارئ المشوق، لأنه كان قد قرأ الكتاب واستثقل شيئاً الرحلة التي بعث بها أبا العلاء ليسيح به في أوربة وأمريكا، واستثقل ما أراده العقاد أن يكون خيالاً ، وجاء طه حسين ليضرب ضربته القاضية في نعومة ذكية فيقول : ((... فقد أراد - الأستاذ العقاد- أن يعطينا صورة من أبي العلاء لو عاش في هذا العصر ، فأعطانا صورة من الأستاذ العقاد الذي يعيش في هذا العصر (...) وأظرف من هذا أن الأستاذ العقاد أراد أن يرتحل بأبي العلاء بعد أن بعثه بعثاً جديداً ، وان يطوف به في أقطار الأرض فلم يصنع شيئاً وإنما ارتحل به في طائفةٍ من الكتب التي قرأها ، وفي ألوان من العلم الذي أحاط به ، وفي الفنون من الآراء التي أتقنها واستقصاها، ذلك لأن الأستاذ العقاد نفسه لم يرتحل ولم يطوف في أقطار الأرض، وإنما ارتحل وهو مقيم وطوف وهو مستقر، وعرف الدنيا وهو لم يتجاوز حدود مصر (...) وأظرف من هذا وذاك أن الأستاذ العقاد أراد أن يغلّب خياله على عقله فلم يصنع شيئاً، لان عقله كان في هذه المرة أقوى من خياله ...)).

كان هذا أبرز ما بقي في الذاكرة من مادة النقود التي قرأها ، والا فما كان يقرأ مقالات طه حسين في النقد من أجل النقد، وإنما يقرؤها انسياقاً مع أسلوبه في لغته ونعومته وانسيابه وموهبته الموسيقية. وهو هنا، شأنه في كل ما يتناول، يتعامل مع الكتاب كما يتعامل مع الطبيعة

والمجتمع، ويتحدث إليك - في ألفة - عقلاً كما يتحدث عاطفة؛ ولا بد من أن يخرج الأثر من بين يديه جميلاً، رائعاً، ساحراً، كائناً ما كان الموضوع في مادته أو غايته.

وإذا كان قارئ طه حسين لا يقيد نفسه بكاتب واحد وأسلوب واحد، وكان في هذا خدمة للآخرين... فأنه خدمة للقارئ توسع بإزائه أفق المقابلة والموازنة - قصداً أو على غير قصد.

ويحل عام ١٩٤١ على هذا القارئ ويدخل فيه ((دار المعلمين العالية))، وللدار مكتبتها العامرة وأساتذتها الأجلاء.

ومن المكتبة استعار وقرأ "قادة الفكر" فعجب ولم يعجب لطه حسين كيف يقرب البعيد ويدني القصي ويُلينُ العصي فينتقل بك بين هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وكأنه ينتقل بك من صديق إلى صديق وانك لتألف هؤلاء الأصدقاء حتى حين لا تكون مالكاً لعناصر الائتلاف، ليكن، فما بموقف سقراط وهو يتناول السم راضيا حاجة إلى عناصر الائتلاف، وما قول سقراط ((اعرف نفسك بنفسك)) مما لا ينفذ إلى مطاوى النفس، أجل وينفذ معه شرط أساس يضعه فيلسوف كبير - احسب أنّه ارسطو- للجدال والنقاش هو وضوح المادة المتناقش عليها بوضوح عنوانها وخلاصه من الشوائب.

تقرأ "قادة الفكر" وكأنك تقرأ أدباً انشائياً...

ثم تقرأ غيره من التاريخ العربي ولكنك تقرؤه أدباً مبدعاً جعل المؤلف عنوانه "على هامش السيرة"، ولا بأس أن يأتي طربك للجزء الأول أكثر من طربك للجزء الثاني لأن مدى الطرب وغور الاستغراق إنما يأتيان من نسبة الانسجام اللغوي والسماحة الأسلوبية، ويبقى حفر بئر زمزم عالقاً بالنفس، كما لحقت عبارة " أيها الطائر" من "دعاء الكروان" وقد قرأتها ثم قرأت "الحب الضائع" فاستغرقتك القصة الأولى أكثر مما استغرقتك القصة الثانية.

والقصتان تجران إلى قصة "أحلام شهرزاد" فقد أسست دار المعارف سلسلة شهرية باسم "إقرأ" استهلتها - كما هو طبيعي- بأحلام شهرزاد لطه حسين فأحسنت الاستهلال، وكانت القصة حدثا في حياة الأدب وحياة القراء، وقد امتد - بسببها- إلى قراءة القصة من لم يكن يهمه الفن القصصي.

وعالم طه حسين لا يقف عند حد، وشُعَبُ فوائده لا تنتهي؛ وهو في إبداعه المباشر هو من هو، ولكنك لا تعدمه أن تراه هوهو في إبداعه على إبداع الآخرين.

وتترك الكتب ذات الموضوع الواحد، إلى كتب متعددة الموضوعات، وهي كتب لمقالات نشرت في الجرائد والمجلات على مدد متصلة أو متفاوتة، ثم جمعت في كتاب لان كاتبها جاد في أمره، عارف بخطره؛ ولأن قارئها متشوق إلى قراءتها ثانية، وأن من لم يقرأها منشورة في صحيفة يهمه أن يقرأها في كتاب.

وها أنتذا تستعير من مكتبة "الدار" كتابا لا تعرف فحواه،

عنوانه: "من بعيد" ويكفيك أنه لطه حسين، تفتحه فيشرع طه حسين نفسه يشرح لك مدلول العنوان: "هذه فصول متفرقة لا يكاد يجمع بينها إلاّ أنها كتبت من بعيد. كتبت من بعيد في المكان وكتبت من بعيد في الزمان أيضاً (...) وأقدم هذه الفصول عهداً كتب سنة ١٩٢٣، وأحدثها عهداً كتب سنة ١٩٣٠...

ولست أخفي عليك إني قد قرأت هذه الفصول التي كتبت كلها أثناء ثمانية أعوام ومضى بيني وبين آخرها أكثر من خمسة أعوام في شيء من الحنان إلى تلك العهود التي كنا نشكو فيها المشقة والجهد ونضيق فيها بالحياة والأحياء، ثم أصبحنا الآن نود لو تعود إلينا أو نعود إليها لا ليعود إلينا معها الشباب بل لتعود معها حياة هي من غير شك خير من الحياة التي نحياها الآن.

كنا في تلك العهود أحراراً نفكر ونقول، كما نريد أن نفكر أو نقول، كنا نلقى ألواناً من المقاومة فلا تزيدنا إلا طموحا إلى الحرية وإمعانا فيها.

وكنا ننظر إلى الجهاد في سبيل الرأي وحرية الرأي على أنّه حاجة من حاجات الحياة وضرورة من ضرورات الوجود الحر، فأين نحن من هذا الآن؟...)).

تقرأ، وتتابع الكاتب في رحلته من مصر إلى باريس... وأكثر ما أثار العجب والإعجاب أن يرتاد طه حسين المسارح يسمع و"يرى" ويستمتع وينقل ما سمع و"رأى: وما استمتع به إلى قرائه. أجل، وأكثر ما بقي في الذاكرة مقال بعنوان "في ملاهي باريس":

((نعم! فقد لهوت، وكانت رغبتي في اللهو من البواعث القوية التي حببت إلي الذهاب إلى باريس (...). لهوت في باريس واختلفت فيها إلى أندية اللهو التي هي زينة تلك المدينة وبهجتها، ولها في رفع شأن باريس وتقديمها على غيرها من مدن الأرض أثر قد لا يكون أقل من اثر "السوربون" و"الكوليج دي فرانس" والمجامع العلمية المختلفة. ولم لا؟....)).

وهو إذ يرتاد المسارح وينعم بالمتعة والراحة والفن لا يبتعد عن هدف رسمه لنفسه بين الأهداف الكثيرة في خدمة الأدب العربي، وقد قال في مقدمة موجزة لكتابه "قصص تمثيلية" (١٩٢٤):

((هذه فصول في النقد والتحليل تناولت بها طائفة من آيات التمثيل الحديث. ولقد كتبتها وجمعتها ولا أريد من ذلك إلا أمرين اثنين: الأول أن أظهر قرّاء هذه اللغة العربية على نحو من أنحاء الأدب الغربي، الثاني أن يكون لهذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر في نفوس الأدباء والذين يعنون منهم بالتمثيل العربي خاصة يحملهم أن يعنوا بهذا الفن الناشئ في أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصباً مفيداً...)).

أجل وكأن طه حسين ينسى في مقدمته هذا قارئاً يقرأ فصوله هذه على أنها فن جميل يقترب المرء من عالمه لذاته. لأن كلام طه حسين على الإبداع إبداع...

سواء أكان ذلك الإبداع المتحدث عنه مسرحية أو رواية أو الطبيعة أو المجتمع...

وهكذا سيقترب قارئ من كتاب وصل إلى مكتبة "الدار" لطه حسين بجزءين عنوانه "لحظات" فيقبل عليه، شأنه مع الكتب الأخرى- ليكن العنوان ما يكون ويكفي أن ينبثق من قريحة نفاذة إلى مرمى في بقلم سيال.

ثم يصل كتاب آخر، بجزءين كذلك، عنوانه "صوت باريس" ولا يمكن أن يتغير موقفك منه عن موقفك من سابقه، وتقرأ الكتابين وكأنك تقرأ لطه حسين المبدع مباشرة، وليس لطه حسين الذي يحدثك عن إبداع الآخرين في الرواية والمسرحية لأنه يتحدث إليك في دعه وألفة، ويستصحبك في سياحات نقدية مرنة فإذا الذي يكتبه عن رواية قرأها أو مسرحية شهدها مقال أخّاذ تقرؤه من دون أن يهمك أنك لم تقرأ الكتاب المتحدث عنه، ولم تشهد المسرح الذي شهده الكاتب بل... كأنك قد قرأت ما قرأ وشهدت ما شهد.

إنك تحب طه حسين منشئا، وتحبه كاتب مقالة أكثر من ذلك، أو الأكثر في ذلك. وها أنتذا تستعير لعطلتك الصيفية كتابا لطه حسين عنوانه "في الصيف" (١٩٣٣). وتشرع تستمتع به صباحا، أنت وإياه قابعاً في زاوية من سطح البيت، فإذا أنت معه في القطار، ومعه في الباخرة، وفي باريس، وفي مسرح لا يستطيع أن يذهب إلى باريس دون أن يزوره، ومعه فيما يشغلُ الذاكرة ويؤرق النفس من أمور مصر، وفي أخبار ترد إليه وفيها المفرح والمحزن، ومن المحزن موت صديق، فيستهل مقالة في رثائه ببيت جاهلي يقول:

أيتها النفسُ أجملي جزعاً

إن الذي تحذرين قد وقعا

وعجيب أن يؤثر فيك هذا البيت، وقد وضعه طه حسين هذا الموضع فيبقى في النفس سنين وسنين حتى إذا عبر عليه نصف قرن ويصيبك الموت بصديق عزيز عليك هو الدكتور مهدي المخزومي وتمسك بالقلم لتعرب عن فجيعتك سبقك البيت إلى كل كلمة وإلى كل دمعة:

أيّتُها النفسُ أجملي جزعا

إن الذي تحذرين قد وقعا

وتزيد، أنك مع كل حبك لطه حسين وكل تقديرك لفجيعته، تُراك أحق بالبيت منه، ورأيت مهدي المخزومي أستاذ اللغة العربية أولى به من عبد الخالق ثروت رئيس الوزراء - وتحتفظ لطه حسين بفضله وقد منح هذا البيت هذه القوة.

وتترك "في الصيف" لتقبل على "أديب" و"صوت أبي العلاء" و"جنة الشوك" وهي ثلاثتها تمثل ضروبا من الابداع جديدة على القلم العربي. وأخص بالذكر منها "جنة الشوك" هذه المقالات التي لا تكاد تتعدى الواحدة منها الورقة الواحدة، ولكنها ورقة ملئت سخرية وثورة كامنة، وبلّغت جمالاً في ادارة الفكرة.

تقرأ، وما تزال طالباً في دار المعلمين العالية. ويسألك سائل عن العقاد - عباس محمود العقاد - وللسؤال ما يسوِّغه فقلما ذكر طه حسين ولم يذكر العقاد، وقلما ذكر العقاد ولم

يذكر طه حسين. وتختصر الجواب فتقول:

إن العقاد لم يجتذبني، وإذا قرأته أو قرأت له فمن باب العلم به، وإن كنت لا أرى بأساً في كثرة قارئيه ومريديه والذابين عنه.

ويبدو لي أن طه حسين والعقاد عالمان مختلفان جداً اختلاف الطراوة والجفاف. ويبدو لي كذلك أن الذين انغمسوا في العقاد لم ينغمسوا في طه حسين بسبب من فروق أخرى حتى كأن المستغرق في طه حسين يستغرق فيمن سيخلد، وأنه ينجذب بفعل فن طه إلى جوهر الإنسان وجوهر التاريخ.

ويسألك آخر سؤالا يرد عن البصير - الدكتور محمد مهدي البصير، ويكاد يكون جوابك عجيبا فيما يبدو لرائيه أول وهلة، ويكون أعجب لمن يعرف الرجلين، ولم يعرف موقف البصير من طه حسين؛ والبصير لا يني يصغّر من شأن طه حسين شفها وتحريرا في الدرس وخارج الدرس.. وإني محب للدكتور البصير، مقدر معجب. والسؤال المشروع أنه كيف كان ذلك، والجواب المشروع يقول:

كان ذلك منذ عاد البصير من فرنسا، وشرع يتحدث في الإذاعة العراقية في "بعث الشعر الجاهلي" ثم طبع الأحاديث في كتاب.

ثم كانت التلمذة الجدية الجادة على البصير في دار المعلمين العالية.

وكان أن قرأنا "بعث الشعر الجاهلي" واستمعنا إلى أستاذنا يعرّض بالدكتور طه حسين في شتى المناسبات من الدرس حتى كأنهما على نقيضين.

وقرأت كتاب "في الشعر الجاهلي" واستكثرت عليه واستكبرت له إلحاحه على ما سماه "الانتحال" ، وصوبت رأى البصير.

وسرت مع البصير محبا معجبا في محاضراته عن "عصر القرآن" و"في الأدب العباسي"، في نثر الأدب العربي وشعره...

وألم بين حين وحين بكتب لطه حسين في الأدب العربي، ومنها "من حديث الشعر والنثر" و"حديث الأربعاء" فلا أجد من الميل الفكري إليها ما أجده في محاضرات البصير.

وقد يبدو الأمر عجيباً، ولكنه هكذا كان، ولكن الأعجب كيف يحب امرؤٌ أستاذين متناقضين؟ وان حب المتناقضين هذا قد وقع فعلا... فما قصرت بشأن الدكتور طه حسين بإزاء الدكتور البصير، وما قصرت بشأن الدكتور البصير بإزاء الدكتور طه حسين؛ فلكل شطر عامر من القلب ولكن شطر طه حسين معمور بالإبداع الإنشائي، وشطر البصير معمور بالبحث الأدبي... وكأني غير ملزم بأن افقد شخصيتي لدى حبّي هذا أو ذاك أو كأن الأستاذين لا يقيدان تلميذهما بقيدهما.

ثم جاءت المفارقة الكبرى أن يتفق البصير وطه حسين في تفضيل حافظ على شوقي، وتقول: ليكن لهما ذاك، وقد يكون مقياسهما خارجاً عن صميم الإبداع، ولكني أخالفهما، وما كان حافظ ليلحق بغبار شوقي...

ولتترك أستاذك طه وشأنه في التفضيل وفي "المعري" وفي "المتنبي" فما كان وكدك في ذاك، وإنما أنت معه تبع جمالٍ يبثه

انشاءً مبدعاً في هذه المقالة أو تلك في "الأيام" وفي "على هامش السيرة" و"في الصيف"...، و"هامش السيرة" لا ينتهي... وهذه مجلة أسبوعية (أحسبها الثقافة) ترد عليك، وترد عليك فيها مقالة بعنوان "ذو الجناحين" تفتح المجلة فتشرع تقرأ وتواصل القراءة وأنت في نشوة غامرة، وسعادة عامرة، لأنك لا تقرأ وإنما تستمع إلى غناء عن أسى دفين، وليس الذي بإزائك ورق وحبر وكلام من كلام وإنما أنت بإزاء إنسان حزين ينشد السلوى فيجدها في إنسان مؤمن يستشهد وهو هاش للشهادة، وتقطع يداه في الدنيا فيكسى جناحين في الآخرة: إنه جعفر الطيار.

وكانت المادة الخام لجعفر الطيار متناثرة مكررة في بطون الكتب، وهي تومئ إلى جعفر الطيار ولا تبنيه، فجاء هذا الساحر المتبصر فأعاد البناء فنهض جعفر الطيار كما هو، وكما يجب أن يكون.

إنها قمة من قمم طه حسين، إنها قطعة موسيقية خالدة، إنها الأدب المبدع كل الأدب.

وتبقى في النشوة أو تبقى النشوة فيك، متحرقا إلى الساعة التي تلتقي بها مع صحبك من ساعات العصر، لتبشرهم، ولتشمخ بسبقك عليهم. وتحين الساعة فتبشرهم فيتلهفون للسماع، فتقرأ فيصغون وكأنهم بإزاء ورد صوفي حتى إذا انتهيت وصحوا من نشوتهم قليلا تناهبوا المجلة، كل يريد أن يفوز به ويسبق إلى القراءة، ليعود يتحدث إلى الصحب بمعنى جديد وصورة جديدة واكتشاف خفي عليهم في القراءة الأولى.

ويسرُّ الصحب جميعاً ما توارد إلى أسماعهم أن من القرّاء من قطع نثر طه في جعفر الطيار تقطيعاً عروضيا على تفعيلات من عدة بحور.

إن أسلوب طه حسين الإنشائي كله في هذه القطعة: لغة سلسلة، موسيقى تكاد تحيل النثر شعراً، موازنات ومطابقات ومترادفات، ذات "الشاعر" في ذات الآخرين، وذات الآخرين في ذاته، وخيال بعيد، مهما يبعد يبقى نديا بالفكر والعاطفة والمعنى الانساني؛ ومهما ينسجم وذات الشاعر يبقى لذات الآخرين مكان الصدارة، ومهما يتصرف يحفظ للتاريخ حقه، وكل ما في أمره انه صائغ ماهر يحب عمله ولا يدع في السبيكة ما يشوبها من موادها الخام.

ولا تزيد أنت معه على معجب يكتفي بالإعجاب سعادة، ويهيئ لنفسه هذا الإعجاب مستريحاً، وإذا كنت ما زلت طالبا فقط في دار المعلمين العالية فانك تسعى إلى طه حسين لنفسك لا لدرس أو مدرس أو درجة في امتحان، وإنك لسعيد معه لبعدك عن الدرس والمدرس والدرجة.

حتى إذا دخل "ذو الجناحين" مادة من الجزء الثالث من "على هامش السيرة" ووصل الجزء إلى مكتبات الحلة خففت إلى اقتنائه في ١٩٤٥/١٢/٨ ولديك الآن ما تقتني به ما تشاء من الكتب فقد تخرجت في دار المعلمين العالية وعينت مدرسا في متوسطة الحلة، ومن حق المدرس

أن يشترك بنادي الموظفين ويتلقى نادي الموظفين أسبوعيا مجلات مصرية أُعدت للقراءة الخفيفة ومنها "مسامرات الجيب" و"الاثنين".... ولتكن المجلة خفيفة فان طه حسين يزيد من وزنها، وليكن الغالب على موضوعات طه حسين السياسة فإنك لا تقرأ طه حسين للسياسة أو الاجتماع أو التاريخ... وتستريح حين ترى "مجلس الأمن" يستحيل على قلمه "مجلس الخوف" وترى "الأمم المتحدة" الأمم المختلفة. إنك تقرأ طه حسين في أُسلوبه الأخّاذ المبدع، الذي يستحيل التراب إذا مسه قلمه ذهبا.

ويصل إلى الحلة (١٩٤٥) العدد الثاني من مجلة "الكاتب المصري" التي يرأس تحريرها طه حسين فتقتنيه، وهذا طبيعي، ويبقى الجرح عميقا في أنك لم تقتنِ العدد الأول، ويذهب جهدك هباءً في الحصول عليه.

ويتجدد الأمل في الحصول عليه بحصولك على عضوية البعثة للدكتوراه في فرنسا مروراً بمصر لمعادلة شهادة دار المعلمين العالية. وتقبل بشرط مصر لما لها من مكان ثقافي من نفسك، ولأنك ستحصل على العدد الأول من "الكاتب المصري"، وإلاّ فإن جانبا من الخيبة معروف سلفا لديك، وهو أن طه حسين لم يعد أستاذا في الجامعة، إنه خارجها، وسياسة بلاده غير راغبة فيه.

وليكن، وتكتمل الخيبة إذ لم تر في الباقي من الجامعة حتى ما تخيلت بقاءه، ورحت تردد مع أبي الطيب:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته
فسرّهم وأتيناه على الهرم

ليكن، ولا بد من طه حسين، وها هوذا طه حسين تستمع إليه وتؤخذ به كما يستمع إليه الألوف ويؤخذ به الألوف. إنك في حضرته وهو يقف في قاعة الجامعة الكبرى لدن حفل لأربعينية صديقه مصطفى عبد الرازق.

يقف طه حسين فتقف الدنيا، ينطق فيصمت الكون، ويمضي يلون صوته في سحر عجيب، والناس في إصغاء لا يماثله إلا إصغاء النساك، حتى إذا انتهى من فقرة وتمهل قليلا لينشد الفقرة التالية، استغل الصامتون الفرصة فأذاعوا همساً من "الله، الله" وكأنهم يؤلفون فرقة تؤدي لازمة من لوازم القصيد. أقول: القصيد لان نثر طه حسين شعر، وأقول: شعر لأنه نثر يفوق الشعر أحيانا.

ولكننا في هذه القاعة في حضرة الناثر الشاعر بل في حضرة الموسيقار المغنى الساحر. عجيب صوت طه حسين؛ وعجيبة حنجرة طه حسين، وعجيب نثره، وعجيبة هذه الأبيات من شعر الحطيئة يرددها طه منشداً في حفل تأبيني:

والله ما معشرٌ لاموا امرأ جُنباً
في آل لأي بن شماسٍ بأكياسِ

لقد مريتكُمْ لو أن دِرّتَكم
يوماً يجيءُ بها مَسْحيَ وإبساسِي

....

لما بدا لِيَ مِنكُمْ غيبُ أنفُسكم

ولم
يكن لجراحي منكم آسِــي
جمعتُ يأساً مُريحاً من نوالكُمُ

ولن ترى طارداً للحر كاليـاس..

أجل، المناسبةُ أن صديقا يؤبّن صديقا له...ولكن في هذا الصديق المؤبِّن عيبا كبيرا هو أن موسيقا صوته تأخذ بألباب السامعين فلا يعودون يتابعون المعاني أو يحصرون الأفكار، فما من شك في أن التأبين يفتح منفذا لتاريخ فكري، ويهيئ سبيلا إلى هموم عاناها ويعانيها الشيخ المؤبِّن، ولكن القوم بفعل الصوت سكارى وما هم بسكارى.

عجيب، وتؤمن أن في العالم العربي - حيث تشتهر حنجرتا أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب- حنجرة ثالثة هي حنجرة طه حسين، وقد ألحقت هذه الحنجرة مرثية مصطفى عبد الرازق بـ"يا ظالمني" و"أنّات حائرة" بل إنها ألحقت النثر بالشعر وأحلت النثر محل الشعر من الغناء.

وينتهي الحفل، فإذا بك - وأنت الخجول- تصعد إلى مجلس المتحدثين وتشق طريقك إلى حيث استقر المقام بطه حسين وكأنك من أهل البيت، لتقف - على مبعدة- متأملاً هذا الساحر الذي اسمه طه حسين، إنه بشر من البشر، ولكنه من طينة خاصة: قلبه ولسانه وقريحته ولسانه وحنجرته.

ويكفيك سعادة ما رأيت وما سمعت، وفي هذه السعادة عوض عن خسارة كبيرة، وليكن - بعد ذلك- من شأن سنة ونصف سنة تقضيها في القاهرة ما يكون من خير وشر.

وإنك مقبل - بعدها- على ما أقبل عليه طه حسين من قبل من دراسة في فرنسا، وربما كان طه حسين من دوافعك إلى هذه الدراسة.

وتهيم هنا - في فرنسا- بجان جاك روسو لدرجة الهُيام. وتتكرر الحال بان اهتمامك لم يكن في "العقد الاجتماعي" ولا في "أميل"... و؟إنما في "الاعترافات"، ويسرك أن تسمع أستاذ البلاغة في السوربون يقول: إن الكتب الستة الأولى من اعترافات جان جاك روسو من أعلى النثر الفرنسي، ولعله قال: أعلى النثر الفرنسي.

وتعود بك الذاكرة إلى طه حسين فتراه قد وقف عند فولتير أكثر مما وقف عند روسو، وترجم لفولتير ولم يترجم لروسو. ومعروف -هنا- أن فولتير وروسو على طرفي نقيض وأن من أحب روسو لم يحب فولتير، وربما كان العكس صحيحا. فلتسجل هذا الاختلاف لك مع طه حسين وتزيده على اختلاف سابق. وهذا ممكن، لا يمنعه عنك طه حسين ولا تمنع نفسك منه وإن كنت ترى طه حسين أقرب إلى روسو منه إلى فولتير، وجامعك بهما: الأسلوب، السهل الممتنع، المنساب، النثريُ الذي هو شعر ومن خير الشعر- وربما كانت "اعترافات" روسو من بواعث "أيام" طه حسين.

وتنتهي من فرنسا، لتعود (أوائل عام ١٩٥٤) مدرساً في دار المعلمين العالية ومحاضراً في كلية الآداب، وأنت أنت من أستاذيك البصير وطه حسين... تقديراً وحباً وذكرى وذكراً.

وتقع على "الجزء الثالث" من الأيام ويحدثك فيه صاحبه عن دراسته وما عانى مختاراً من مشاق الدراسة في باريس، وما وسّع مختاراً من أطراف المعرفة بين اللغة اللاتينية وعلم الاجتماع، فلا تستغرب أن كانت رسالته -هناك- للدكتوراه عن "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية"، وأنه حين عاد من فرنسا إلى الجامعة المصرية تولى تدريس التاريخ القديم لليونان والرومان. وإذا علمت ذلك أدركت أي عالم عريض عميق عالم هذا الرجل الذي تعجب به ويعجب به معك الألوف والملايين - وترى أن لا بد من أن ينفذ هذا العالم الواسع إلى فن المقالة أو تنفذ المقالة فنا إلى هذا العالم الواسع- وما كان النفاذ بمكن من دون موهبة تقرب البعيد وتبعد القريب...

تقع -إذاً- على الجزء الثالث من الأيام، وتقع -معه- على ما شرعت "دار العلم للملايين" تطبعه أو تعيد طبعه فتقتنيه أو تقرأ فيه، وللنقد الأدبي منه مكان ملحوظ: "خصام ونقد"، "نقد واصلاح"، "من أدبنا المعاصر"... ولكن الذي يهمك فيها -أول ما يهمك، أو كل ما يهمك: أسلوب الكاتب، وان هذا الأسلوب ليتجلى في المقالات، وانك تقرؤه مقاليا أكثر منه ناقدا أو باحثا أو مفكراً، وتقرؤهُ هو نفسه مناسبة في المقالة أكثر مما تقرأ العنوان المعلن للمقالة، ومن الجديد عليك - من مطبوعات دار العلم للملايين: "أحاديث" و"خواطر" و"كلمات" و"رحلة الربيع"... وإنه فيها ليصل الشعر بالشعر.

وتسأل: إذا كان طه حسين شاعراً في نثره، اما كان شاعراً نظم الموزون المقفى؟ والسؤال من الوجاهة بما يضحكك من جوابه.

اجل، نظم طه حسين - في مطلع حياته، وهو طالب في الأزهر- الموزون المقفى، وكان يرى نفسه شاعراً فقط، ويعجب للذين يستطيعون كتابة النثر. اجل، ولكنه في الدرجة العاشرة من النظم أي في آخر الدرجات هكذا كان الأمر -أمره- وحسناً فعل، له ولنا، حين خرج عما كان إلى ما يكون فإذا بالصبي اللائذ بزاوية من الأزهر... أديب العصر، ولم يخطئ من دعا العصر الأدبي بعصر طه حسين على سنة من يسمي العصور بأبرز مبدع أدبي فيها وما تهيأ ذلك من دون جهد ومشقة وعناء... ومرض. وثقل عليه المرض وأعضل وتوفي في الثامن والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٧٣، ولا تسل كيف شق نعيه على المعجبين به ومحبيه وعارفي فضله. وتتذكر الدكتور البصير لما كان له عنه من مواقف فتسأل عن موقفه من هذه الوفاة، فإذا هو الموقف المشرف اللائق به. لقد كنت في حضرته حين وصل خبر الوفاة إلى تلفزيون بغداد فخف التلفزيون يبحث عمن يتحدث له عن طه حسين، وهداه الهدى إلى الدكتور البصير، وما سمع الدكتور البصير حتى بلغ منه التأثر أشدّه، وما دُعي للكلام حتى استجاب طائعاً، وخرج من بيته - وهو المعتزل- وأنا في صحبته في ليلة عاتية وما جلس على المنصة حتى أعلن

عظم المصاب وتحدث عن الفقيد الغالي في فضله ومكانته. ولا تسل عن فرحتي وأنا الحزين - بكلمة البصير، ويكفيني أن يلتقي البصير وطه حسين، وان التقي أنا فيهما.

ويلتقي في طه حسين عصر كامل، هو صاحبه المتعدد المواهب وهو البارز فيه، الذائع الصيت في أرجائه، فتقام الاحتفالات التأبينية والمؤتمرات الخاصة، وتتوالى الدراسات عن حياته وأفكاره وفي مكانته من تاريخ الأدب والنقد الأدبي والفكر الأدبي والفكر السياسي، وعن فتوحاته ومعاركه وضميره وإصلاحاته على مدى القطر ومدى الأمة وما يتعدى حدود القطر والأمة. ويعاد طبع النافد من كتبه ويجمع ما تناثر له في الصحف. وتصدر عنه الذكريات وتكتب زوجته السيدة سوزان كتابها المبدع عنه بعنوان "معك".

وسيظل كذلك محط الاهتمام والإعجاب إلى مدى بعيد، وبعيد جداً ولم يخطئ - ونكرر- من وسم - ويسم- عصره باسمه. وإن المرء ليقرؤه مجدداً أو استعادةً فيراه حياً نابضاً بعناصر البقاء وكأن عشرين عاماً ليست شيئاً أو كأنها زادته حياة وجدة واجتازت به مصاير الكبار من أدباء العصر.

وتحل "المقالة" -لدي- منه المقام الأول، فهو سيد المقالة العربية بلا منازع وهو الذي أخرجها من التعليم إلى الفن ومن العابر إلى الخالد ومن الكلام أي كلام إلى الموسيقى الساحرة... حتى في الموضوعات التي لا يراها غيره موضوعات. ومن عجائبه أنّ المقالة لديه صالحة لكل شيء، وأنّ كل شيء صالح للمقالة، فما يكاد يقترب من شيء حتى يتبناه ويعيشه ويخرجه عن قلمه لوحة مبدعة وكياناً أخّاذاً... من حالي الرضا أو السخط، ولدى الانبساط والانقباض باثاً فيه الفرحة الغامرة حيناً والسخرية الخفية حيناً، والحياة دائماً. إنه الساحر الذي يحيل التراب ذهباً. وإنه الأسلوب نفسه.

وواضح من هذا أننا حين نذكر الأسلوب إذ نذكر طه حسين ونذكر طه حسين إذ نذكر الأسلوب... نذهب أول ما نذهب إلى اختيار اللفظة المأنوسة الدالة وإلى اتساق الكلمات المناسبة، ونذهب - بمعنى أخصر - إلى الموسيقا المصورة حيث يستحيل الواقع خيالاً وغير المرئي مرئياً... وما نذهب اليه صحيح، ولكنه ما كان ليكون تام التأثير لولا ما يحتويه من معاني إنسانية وما يستحيل فيه المحلي عالمياً والعالمي محلياً، ومثلهما الفردي والجمعي والمؤقت والدائم.

تلك هي مقالته التي رفعته عالياً...

ولعلك واجد أشياء منه عند غيره في الفكر والسياسة والاجتماع وتاريخ الأدب، ولكنك لا تجد المقالة التي عنده عند

غيره. واشهد أن المقالة وجدت عند معاصريه، ولكن ما أسرع ما فقدت تلك المقالات بريقها فجفت فيها منابع الحياة - وفي مقدمة تلك المقالات، مقالات العقاد، إذا كان لا بد من ذكر العقاد - واستحالت تاريخاً ماضياً حتى يتعجب كيف علت تلك المقالات في عصرها ولدى عدد لا بأس به من القراء.

ولكنك تؤمن بأن الخلود للموهبة الكبيرة، وبأن صاحب هذه الموهبة الكبيرة يبقى أستاذاً لمعاصريه ولدى العصور التالية.

وليس شرطاً في "الأستاذ" أن يقف على منصة في معهد، وقد وقف طه حسين على أعلى منصة في أعلى معهد وكان له في ذلك تلاميذه الكبار. ولكن طه حسين أستاذاً أخاذاً خارج المنصة والمعهد كذلك، وأكثر من ذلك، وأن تلاميذه في الفضاء الخارجي الواسع جداً يفوقون تلاميذه في الحيز المحدود من الجامعة.

فنم هانئاً - أستاذي طه حسين فحقك محفوظ وقد يخفف هذا من العناء الذي لاقيت والشدائد التي عانيت.

ولا بأس

فأنت مرصود للبقاء ومعد للخلود.

١٩٩٣/١٠/٢٥

حاشية التقديم

(١) أساتذتي ومقالات أخرى: ٦٩.

(٢) نفسه: ٩٣.

(٣) نفسه: ١١١.

(٤) نفسه: ٧٥.

(٥) ينظر الاعلام ٧ : ٢٣١، وينظر موسوعة أعلام العرب: ٥٥٣، ٥٥٤ فقد نصّ على أن وفاة مصطفى عبد الرازق كانت في القاهرة في ١٩٤٧/٢/١٥.

مراجع التقديم

- أساتذتي ومقالات اخرى، د. علي جواد الطاهر، دار الشؤون الثقافية-بغداد-١٩٨٧.
- الأعلام، خير الدين الزركلي- دار العلم للملايين بيروت-لبنان ط١٦٢٠٠٥.
- موسوعة أعلام العرب، تأليف لجنة، بيت الحكمة بغداد ط١٢٠٠٠.

Abstract

This is an unpublished text written by Prof. Dr. Ali Jwad Al-Taher in 1993 through which he expressed his high opinion, regard and esteem he had held to Taha Hussein which started from his very youth and extended a long his whole age. Prof. Al-Taher had given me the mentioned text before his passing away. Being grateful to this man I have introduced it and prepared it for publication.